الهويّه المصرية .. وكيف تعود إلى عمراننا

مهندس استشاري / صلاح حجاب*

- نشأنا جميعا وتعلمنا وتعلم من جاؤا بعدنا من أجيال أن هذا الوطن كان بدايات الحضارة فوق الأرض وان ما تركه لنا الأجداد من تراث حضاري مبنى ومقروء هو تراث البشرية الذي يؤكد حضارة كانت أخذ عنها الآخرون .. وفى العصر الحديث في أوائل القرن التاسع عشر في عصر النهضة التي بدأت في حكم محمد على أنشأ مدرسة للهندسة وعندما استورد أبناؤه المهندسين من أوروبا بحثوا في تراث مصر وقدره حرفييها عندما أرادوا أن يبنوا في مصر تراثها الحضاري .. ولذلك كان ما شادوا معبرا عن مصر المكان والسكان.. فى ذلك الوقت.

- وأصبح في مصر المحروسة الآن حوالى ٤٠ قسماً للعمارة والتخطيط وفنون الهندسة المختلفة المكملة والقادرة على الأداء بداية من التخطيط الى التصميم والتنفيذ .. وبلغ عدد مهندسيها الأحياء المقيدون في نقابه المهندسين أكثر من نصف مليون مهندس فى جميع فروع الهندسة.

- ولكن .. وأه من لكن تحت شعارات لما سمى بالعولمة التى هى ليس طبعا القولبه .. ولما سمى بالانفتاح .. ولما حدث وسيحدث من تطبيق اتفاقية حرية تجارة الخدمات (الجاتس) والتوجه للبحث عن الخواجة فيما يمكن أن يقوم به المصرى وبدأ بعض المستثمرين - ممن يملكون المال - توجه غريب بدعوى أن ذلك يعاونهم فى تسويق ما يستثمرون فيه .. وكأن الاستثمار العقاري هو فقط اغتنام فرص وخداع ولا أخلاق له .. بينما الاستثمار العقاري الاخلاقى هو فهم للطلب بالنوعية المطلوبة فى المكان المناسب والسعر المناسب وتشكيل الآليات القادرة على تحقيق هذا الطلب وتسويقه والترغيب فيه وكل ما يلزمه الاستثمار العقارى - وأتحدى - لا يحتاج أى تقنيات أوتكنولوجيات غير متوفرة فى مصر .. فعناصر الاستثمار العقارى كما نعلم جميعا هى طلب وأرض ومخطط ومصمم ومقاول ومواد بناء ثم عرض وترويج فى اطار تشريعي وتمويلى يؤكد أن هذا الطلب يحقق رغبات الطالب وفى اطار قدراته الآنية والمستقبلية .. وكل هذه العناصر متوفره محليا.

- وهكذا اخذنا هوى البعض من أصحاب الأعمال لتكون عمارتنا وعمراننا غير معبرة عن ما تراكم فوق أرض مصر من حضارات عمرانية بدعاوى كثيرة أهمها أن هذا العالم الذى نعيشه هذه الأيام أصبح قرية صغيرة وهى دعوى العولمة كما سبق أن ذكرت وهى دعوى حق أنتجت لنا باطلا .. لأن كل الفراغات المعمارية والعمرانية لا بد ان تحقق احتياجات حياتية مرتبطة بالسكان (اجتماعيا واقتصاديا) والزمان بمعطياته التى تنعكس فى التشكيل الفيزيقى للمكان من الداخل والخارج وتزاوج هذه الفراغات لتشكل معا الفراغات العمرانية ووظيفتيها المناسبة للسكان فى المكان.

* رئيس شرف الجمعية المصرية للتخطيط العمراني ومقرر لجنة العمارة بالمجلس الاعلي للثقافة (سابقا)

- وكما قال يوما الراحل الاستاذ الدكتور/ سيد ياسين بأن العولمة ليس أن نتخلى عن معطيات وعبقرية المكان وذلك تأكيدا لاستدامة العطاء الانسانى الواعى فى المكان والزمان.

- وليس أيضا معنى الهوية (بضم الهاء) فى عصر العولمة أن نعود الى النقل عن الماضى دون استخدام ابداعات معطيات الحاضر بل علينا كما قال يوما الاستاذ كامل زهيرى أن نبحث فى الماضى عن الجذوه المتقده وليس عن الرماد. وعلينا أن نشكل من كل ذلك (معطيات الحاضر + الجذوه المتقده التى وصلتنا من الماضى) واقعا عمرانيا يمكن لأجيال قادمة ان تتعرف من خلاله على واقع هذه المنطقة وهويتها.

- ومرة أخرى أرجو أن نتفق أن العولمة ليست النقل مما أعطاه لنا الحاضر فقط والهوية أيضا ليست النقل من الماضى ولكن الهوية من وجهة نظرى تزاوج معطيات العالم من حولنا لمعطيات حاضرنا فى موقعنا بكل ما تراكم عليه من حضارات وما تؤكده الجغرافيا والتاريخ والذى شكلت كلها واقعا ثقافيا يمكن أن يشكل عمراننا بكل تصنيفات هذا العمران الذى يحتوى الإنسان المصري في مساكننا ومبانينا العامة وفراغاتنا العمرانية.

- ولا يفوتني تعريفاً للعمارة سمعته من الراحل الاستاذ المعماري/ يحيى الزيني والفنان/ فاروق حسني وزير الثقافة الأسبق (العمارة وعاء الثقافة) لأن ما يتبقى من أي عصر عمارته التي تعبر عن الثقافة الجماعية لهذا العصر.

- واليوم وبعد أن فقدنا هويتنا العمرانية في المدينة والقرية لأسباب كثيرة - لن نناقشها هنا هذه المرة - هل يمكن أن تكون دعوتنا في هذا العصر أن تكون مصر ثقافة وعمرانا مؤكدة بأننا في مصر .. أعتقد أن ذلك ممكن بما لدى مصر من إمكانيات مادية وبشرية ومعرفية.

- دعونا نؤكد مرة أخرى أن تكون دعوتنا لمعماريي مصر ومهندسيها وكل من له علاقة بعمران في مصر أن نستشعر في عمارة مصر وعمرانها اننا (نبقى صحيح في مصر) حقيقة وليس غناءا.